آثار المستشرقين في الأدب العربي

إعداد

منى عبد العظيم محمد مكي

باحث دكتوراه كلية الآداب – جامعة أسوان

المقدمة

شارك الاستشراق بنهضة الأدب العــربي وهذا باعتراف الدارسين والباحثين، وقد اهــتم المستشرقون اهتماماً كبيرًا بتأريخ وتاريخ لأدب العربي، حيث قٌسم تاريخ الأدب العربي حسب العصور السياسية المختلفة-نظام الحكم- بخلاف ما قام به القدماء العرب من تصنيــف الأدباء حسب مواليدهم ،أو حسب وفاتهم وفي بعض الأحيان حسب أنواع مواضيعهم المختلفة.

وكان الدكتور طه حسين في طليعة المتأثرين بهذا المنهج الجديد في الدراسات الأدبية، وكان تأثره هذا عميقاً إلى درجة أنه كان كثيراً ما يأخــذ بآراء المستشرقين ويتحمس في الدفاع عنها في مجال إصدار الأحكام حول الأدب العربي القديم وخاصة الجاهلي منه، بل إننا نستطيع أن نقول دون أدنى مبالغة أن طه حسين لم يكن في الحقيقة سوى ثمرة من ثمرات الإستشراق، ومُبــشر بالمبادئ والأصول التي دعا إليها المستشرقون في مجال دراسة الأدب، وعلى صعيد الرؤية العامة للأدب العــربي الكلاسيكي في عصــوره المختلفة. ولعل تأثره بالمستشرق صموئيل مرجليوث الذي نفــى أنْ يكــون الشــعر الجاهــلي الذي بين أيدينا معبراً عن العصر الجاهلي وإنما هو ــ في رأيه ــ نتاج مرحلة تالية لظهور الإسلام، السبب في ذلك.

وقد بلغ من تحمس طه حسين لمناهج المستشرقين في البحث الأدبي، والإستنتاجات التي توصلوا إليها في هذا المجال أنه قال ما نصه: " وكيف نتصور أستاذاً للأدب العربي لا يَلم ولا ينتظر أن يلم بما انتهى إليه الفرنج من النتائج العلمية حين درسوا تاريخ الشرق وآدابه ولغاته المختلفة؟ وإنما يُلْتَمَس العلمُ الآن عــند هؤلاء الناس، ولابد من التماسه عندهم حتى يتاح لنا نحن أن ننهض على أقدامنا، ونطير بأجنحتنا، ونسترد ما غلبنا عليه هؤلاء الناس من علومــنا وآدابنا وتاريخنا." (١)

١- في الأدب الجاهلي/ طه حسين /لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة، /طبعة ١٣٥٢،٣هــ-١٩٣٣م/صــ١١

أ- دور المستشرقين الفرنسيين في نقل الثقافة العربية إلى الغرب

يري بعض الباحثين والدارسين أن للمستشرقين دور بارز في إذكاء روح الترجمة، وإقامة العلاقات بين الشرق والغرب،نتيجة للحروب الصليبية، والتبادل التجاري عبر صقلية، والفتح الإسلامي للأندلس، وامتداد الدولة العثمانية،

ففي زمن الحروب الصليبية عرفت أكبر حركة ترجمة في التاريخ على امتداد قرنين من الزمان، نقل فيها معظم التراث العربي وأمهات الكتب إلى الغرب مما أتاح للثقافة العربية أن تدخل من باب واسع حضارة الغرب، وتترك أثرا بارزا مهما ساهم في رفع المكانة الثقافية والعلمية والحضارية للغرب،وقد امتد اهتمام المستشرقين بثقافة الشرق العربي منذ ذلك الوقت حتى العصر الحديث، وفي السطور القليلة القادمة سوف نلقي الضوء على دور المستشرقين الفرنسيين في نقل الثقافة العربية إلى الغرب، دون الوقوف على تحليل الجوانب السلبية،أو التطرق إلى نظرة المستشرقين للشرق بطرفيها السلبي والإيجابي، فهي دراسة مسحية تلقي الضوء على المساحة التي أفردها المستشرقون الفرنسيون للثقافة العربية في ثلاثة محاور:

الأول ترجمة المصادر والكتب العربية

والثاني: دراسات عن الأدب العربي

والثالث: ترجمة أعمال أدبية.

هناك مصطلحات مثل الترجمة، و الأدب المقارن، وأدب الرحلات، ارتبطت فيما بينها، إذ من الصعب وضع حد فاصل بينها، وقد أدت هذه المصطلحات دورا بارزا في الكشف عن تراث الأمم السابقة وما زالت، كما يعود لها الفضل في ظهور كثير من المصطلحات الأدبية المرتبطة بها، كالتوازي ،والتقاطع ،والفرانكفونية، والتأثير والتأثر، والمثاقفة وغيرها، التي أسهمت في تلاقح الثقافات وتلاقيها، مما فتح المجال أمام الدارسين والباحثين الذين كشفوا عن علاقات مهمة ووثيقة بين ثقافات الأمم السابقة والحالية،وعند الحديث عن الترجمة لا بد أن نتحدث عن الاستشراق والأدب المقارن ودور المستشرقين والرحالة وغيرهم، في تلاقي الثقافات والأمم والأديان والعلوم كافة، فالترجمة حقل معرفي مشترك، يؤدي دور الوسيط بين النص الأصلي (لغة المصدر)، وبين اللغة التي ينتقل إليها النص (لغة الهدف) ، وهي أيضا فعل إبداعي، ونشاط لغوي،

وضرورة حضارية، وموقف أيديولوجي، تؤطرها كلها طبيعة العلاقات المتبادلة بين مجتمعي النص: المترجم منه والمترجم إليه في لحظة تاريخية معينة.

والمترجمون على اختلافهم، تحكمهم الثقافة والتوجهات الفكرية والقدرة اللغوية، فالمترجم لا بد له من أن تتوافر فيه هذه القدرات المختلفة حتى يستطيع أن يتفهم النص وينقله بأمانة، كما لا بد له أن يتقن لغة النص الأصلي حتى يستطيع أن يتفهم أبعاده الصغيرة، لكي ينقل أفكاره العميقة بدقة ،ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في الترجمة نفسها، في وزن عمله في المعرفة نفسها، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها.

والحديث عن الترجمة حديث قديم جديد، فكل عصر يضفي على المترجم التطورات التي تصيب الأمم،فطال مجالاتها المعرفية المختلفة، وهذا يعني أن تواكب الترجمة هذه التطورات دون أن تغفل عنها. وقد عرف العرب الترجمة على امتداد عصورهم المختلفة.

وقد كان للمستشرقين دورا بارزا في إذكاء روح الترجمة، وإقامة العلاقات بين الشرق والغرب، من خلال الحروب الصليبية (١٠٩٦ – ١١٨٤م)، والطرق التجارية عبر صقلية، والفتح الإسلامي للأندلس (٩٢هـ – ٨٩٧هـ)، وامتداد الدولة العثمانية (١٢٨٠-١٩٢٢ م)، ففي زمن الحروب الصليبية عرفت أكبر حركة ترجمة في التاريخ على امتداد قرنين من الزمان، نقل بوساطتها معظم التراث العربي وأمهات الكتب، مما أتاح للثقافة العربية أن تدخل من باب واسع حضارة الغرب، وتترك أثرا بارزا، مما أسهم في رفع المكانة الثقافية والعلمية والحضارية للغرب، كما ركزت الإرساليات على دور التعليم بنشر الكتب وعمل المطبعات، ونشر المجلات في الناصرة ولبنان.

ومع بداية عصر النهضة ازداد الاهتمام بالشرق عامة، وأسهمت مجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية في دفع الدراسات الاستشراقية في الدول الأوروبية، كي تنمو لتشكل منظومة معرفية تسعى لخدمة الغرب في سعيه الدءوب لإخضاع الشعوب المستَعمرة، لذا فإن هذه المنظومة لا تعكس حقائق أو وقائع، بل تصور صورة الغرب وهو يتعامل مع الحضارات الأخرى من منظور المركزية الأوروبية وهذا ما عكسته حملة نابليون على مصر (١٧٩٨- ١٨٠١م)، فقدوم المستشرقين معه، هو محاولة لمعرفة ما يكتنزه الشرق من قيم ومفاهيم وثقافات.

ومع تطور مفهوم الاستشراق في القرن الثامن عشر، أصبح المستشرقون يتعاملون مع الشرق من زاويتين: سلبية، وهي النظرة القديمة التي كونتها العقلية الغربية البعيدة عن الشرق، من خلال بعض الرحلات التي كان يقوم بها بعض المستشرقين من أمثال إدوارد لين (ت١٨٧٦م)، وريتشارد بيرتن (ت١٨٩٠م)، وساسي (ت١٨٣٨م)، ورينان (ت١٨٩٢م. وإيجابية كما صورها الدارسون الذين درسوا وأقاموا بالشرق، وعايشوه،كما فعل بلاشير (ت ١٩٧٣م)،وفيشر (ت ١٩٤٩م)، وايمكيل وغيرهم. أو من أقام بالغرب من العرب، من أمثال رفاعة الطهطاوي (رفاعة ت١٨٧٣م)، والمراش الحلبي (فرنسيس فتح الله الحلبي ت١٨٧٤م)، فقد كانت باريس بالنسبة لهم مدينة العلم، والمعرفة، والفن، والتطور، فكتبوا الكثير عنها بعد أن أقاموا فيها، وكانوا ممن كتبوا عنها .

وقد اتسعت مجالات الاستشراق، وأخذت تشهد انعقاد المؤتمرات الدولية، وقد احتضنت فرنسا أولها عام ١٨٧٣ م. وصارت بذلك باريس عاصمة الاستشراق، وأخضع الاستشراق للإمبريالية والعرقية والماركسية وغيرها، غير أنه أصبح يملك منطلقات للبحث، وجمعيات علمية ومؤسسات خاصة، نمّت عدد كراسي الأستاذية في الدراسات الشرقية عبر عدد من دول الغرب، ممَّا أتاح مجالاً واسعًا لنشر الدراسات الأكاديمية ، وهذا الميدان من أبرز الميادين التي يعتمد عليها المستشرقون في الوصول إلى أغراضهم، لأنه الميدان الذي يستطيعون منه توجيه الباحثين وإخضاعهم للمنهج الاستشراقي، سواء أكانوا غربيين أم كانوا شرقيين من طالبي الشهادات العليا من العرب والمسلمين، وفي هذا المجال استطاع المستشرقون بدءا من القرن التاسع عشر، في وضع الفكر العربي الإسلامي تحت المجهر لقولبته من جديد، وتكييفه وفقًا للأهداف الاستشراقية المسبقة، كما امتد نشاطهم ليشمل مجال المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلمية سواء في داخل أوروبا أم في داخل الوطن العربي والإسلامي نفسه، وعمدوا إلى تأليف الكتب، وإصدار الموسوعات العلمية كما اعتمدوا على إصدار المجلات العلمية اعتمادا كبيرا، ومن أبرز المجلات التي أصدروها، "المجلة الآسيوية"، ومجلة "الدراسات الشرقية"، ومجلة "شؤون الشرق الأوسط"، ومجلة "العالم الإسلامي" .

ولأن المدرسة الفرنسية هي رائدة المدارس الاستشراقية في أوروبا، فإنها قامت بنقل الثقافة العربية إلى الغرب من خلال ثلاثة محاور:

الأول ترجمة أمهات الكتب العربية القديمة إلى اللغات الغربية.

والثاني: الوقوف على أهم ما أنجزه المستشرقون من دراسات عن الأدب العربي.

والثالث: التعرف علي ما تم ترجمته من القصص والروايات العربية الحديثة.

ب- دور المستشرقين الإنجليز في نقل التراث العربي

وهنا تُعنى بالعلاقة بين الاستشراق وعلم تحقيق النصوص، وكيف أسهم المستشرقون في تحقيق التراث العربي ونشره، وتركز الدراسة عملها على الاستشراق الإنجليزي بصفة خاصة، لما قدمه من اهتمام في نشر التراث العربي، ولا سيما اللغوي؛ حيث أقبل المستشرقون الإنجليز على التراث العربي إقبالًا كبيرًا، وحققوا عددًا كبيرًا من مُنجزاته، كان في مقدمتها الدواوين الشعرية وكتب الأدب، ويأتي اهتمامهم بالتراث اللغوي العربي في المرحلة الثالثة؛ ليحتل حيزًا لا بأس به في دائرة اهتمام مدرسة الاستشراق الإنجليزي، حيث أسهموا مع مستشرقي العالم خلال القرنَيْن التاسع عشر والعشرين في تحقيق كثير من الكتب اللغوية العربية ونشرها؛ خاصة في مجال التأليف المعجمي وقد حرَصَتْ الدراسة كذلك على أن تبيِّن مدى اختلاف منهج المحققين العرب في التعامل مع النصوص نفسها التي حققها المستشرقون الإنجليز، وما أفادوه منهم أما المستشرقون الذين تتخذ الدراسة من تحقيقاتهم مادة لها؛ فهم:

•**المستشرق ماثيو لمسدن**(١٧٧٧-١٨٣٠): الذي عَمِل أستاذًا للغتَيْن العربية والفارسية في كلية فورت وليم (١٨٢٢-١٨٢٥م)، وتولَّى الإشراف على مطبعة كَلَكُتَّا

•**المستشرق وليم رايت** ١٨٨٩-١٨٣٠م): الذي عَمِل أستاذًا للغة العربية في جامعة لندن وجامعة دبلن وجامعة كمبردج

•**المستشرق فريتس كرنكوف**(١٩٥٣-١٨٧٢م): وهو ألماني الأصل، هاجر إلى إنجلترا، وتَجنَّس بالجنسية الإنجليزية، واتَّصل بدائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، وانتُخب عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق.

وتهدف الدراسة إلى التعرف على علم تحقيق النصوص من خلال قراءة الأعمال التي حققها المستشرقون والعرب وتحديد قيمة الأعمال التراثية التي حققها المستشرقون، وما لها من أثر في الدراسات اللغوية العربية لدى العرب وغيرهم ودعم الدراسات المتخصصة في مناهج المستشرقين في تحقيق التراث اللغوي العربي.

جـــ – دور المستشرقين الألمان في نقل التراث العربي

وأود هنا أن أوضح دور المستشرقين الألمان حيال اللغة العربية والعرب، وذلك من خلال نقاط هي:

أ– حفظ المخطوطات العربية:

إذ من المؤسف ومن المفرح في آن واحد أن آلاف المخطوطات العربية والإسلامية قد وجدت طريقها نحو المكتبات الألمانية فربما لو ظلت قابعة في بيوتنا لقضي عليها وقد آلت إلى المكتبات الألمانية في الجامعات والبلديات من خلال الشراء والاستيلاء عليها من الأقطار العربية لكنها– وبحق– وجدت من يسعى إلى حفظها وتصنيفها وفهرستها والعمل على تحقيقها، وإن نظرة في أعداد هذه المخطوطات لتوضح لنا أهميتها كذخائر تراثية لا تقدر بثمن.

وقد احتلت مكتبة برلين الوطنية نصيب الأسد من هذه المخطوطات إذ إن عددها يربو على عشرة آلاف مخطوط، فهرست في عشرة مجلدات، وفي مكتبة جامعة جوتنجن حوالي ثلاثة آلاف مخطوط من نفائس التراث العربي، وفي مكتبة جامعة توبنجن في جنوب المانيا العديد من المخطوطات والذخائر ناهيك عما فيها من كل اصدارات العالم العربي والإسلامي من كتب ودوريات منذ اختراع المطبعة، جاوز عمر بعضها المائة عام واختفت من المكتبات العربية وصار الحصول على بعضها ضرباً من المستحيل، كل ذلك محفوظ في مكتبة جامعة توبنجن مما يجعل دورها دوراً ثنائياً في خدمة المخطوط والمطبوع من الفكر العربي.

ب– تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية.

ولم يقتصر دور المستشرقين الألمان على حفظ هذه المخطوطات فحسب ،بل عمدوا إلى تحقيقها تحقيقاً علمياً ذا فهارس متعددة واستوجب تحقيقهم وضع مؤلفات تعد عمدا في موضوعاتها كالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الذي وضعه المستشرق الألماني

فلوجيل والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ومعجم شواهد العربية، وهي بحق مؤلفات رائدة يعتمد عليها المحققون العرب، وقد قام بعض العرب بالسطو عليها وكتبوا اسماءهم كمؤلفين لها وربما تواضعوا وذكروا اسم المستشرق الألماني في سطر في مقدماتهم الطويلة.

وقد حقق المستشرقون الألمان عدداً كبيراً من أمهات التراث العربي "الكامل"للمبرد و"تاريخ الطبري"الذي استغرق تسعة عشر عاماً من العمل المتواصل، ومؤلفات البيروني و"بدائع الزهور" لابن اياس و"طبقات المعتزلة" لابن المرتضى و"مقالات الإسلاميين" لأبي الحسن الأشعري، و"الفهرست" لابن النديم ومؤلفات ابن جني وعدداً كبيراً من دواوين الشعراء القدامى، وقد عكف ايفالدفاجنر على ديوان "أبي نواس" قرابة عشرين عاماً حتى أكمله تحقيقاً.

وهو دور يجب أن يحمدوا عليه، وقد يقال: إن بعض ما حققوه كان اختياراً متعمداً لبعض الكتب التي تعنى بالفرق الإسلامية واللهجات، وهي مقولة صحيحة لكن جل تحقيقهم كان بعيداً عن ذلك، فما علاقة تحقيق المعلقات وترجمتها بحالة العرب الآن وتشرذمهم وتخاذلهم؟

كما أن أخطاء كثيرة وقعت في تحقيقاتهم وهذا أمر منتظر، فسر العربية عصي على أبنائها، فكيف على غير ابنائها، وقد جاءت بعض الأخطاء مضحكة، فقد قرأت لأحد المستشرقين تحقيقاً لكتاب ورد فيه مقولة "أشهر من قفا نبك" وجاءت في المخطوط "أشهر من قفا نبك" وقام المستشرق الألماني بالبحث في المعاجم والقواميس عن شخصية "قفان بك" ومن عجب أنه قد وجد أن قائداً تركياً قديماً كان يدعى بهذا الاسم فعزا إليه الشهرة، ولم يهتد إلى معلقة امرئ القيس المبدوءة بقوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل. [١]

لكن ذلك الأمر لا يخلو منه المحققون العرب الذين يخطئون في أشياء مضحكة أيضاً.

١- ديوان امرئ القيس/تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم/دار المعارف/الطبعة الخامسة/صـــ٨

وأود هنا أن أنوه بجهود مركزين هما: معهد الدراسات الشرقية في اسطنبول بتركيا، ومعهد الآثار والدراسات الشرقية في بيروت، اذ يعملان على تحقيق المخطوطات العربية والاسلامية ونشرها في سلسلتين هما: المكتبة الاسلامية، وسلسلة بيروت، وقد أسهمتا في نشر الكثير من النصوص الأدبية المخطوطة وتحقيقها كالوافي بالوفيات للصفدي على سبيل المثال.

جـ- تأليف الكتب والدراسات حول الفكر العربي والإسلامي:

ولا يمكن لأي دارس في الأدب والنقد العربيين أن يتجاهل أعمال مستشرقين ألمان كبار مثل كارل بروكلمان وكتابه تاريخ الأدب العربي، على الرغم مما ورد فيه من بعض الاخطاء التي حاول دارسون عرب أن يتداركوها عليه كما فعل عبدالله بن محمد الحبشي، لكن يبقى لكتاب بروكلمان فضل السبق في التعريف بالتراث العربي والإسلامي المخطوط في جميع مكتبات العالم وهو جهد فردي لم نستطع نحن للأسف فرادى وجماعات أن نقوم به، وقد أحسن الدكتور محمود فهمي حجازي وجمع من المهتمين باللغة الألمانية في ترجمته لهذا الكتاب ترجمة وافية أفادت المتلقي العربي.

كما أن المعاجم التي وضعت في الالمانية كمعجم هانزفير العربي الألماني يعد معجماً رائداً، كما يعد كتاب "العربية" ليوهان فك من المصادر التي لا يستغنى عنها،وقد تحدث نجيب العقيقي في كتابه "المستشرقون" عن بعض المستشرقين الألمان وعن اسهاماتهم الفكرية ويعد هذا الكتاب مرجعاً في بابه حتى زمن نشره.

وقد وجه بعض الباحثين نقداً لهذه المؤلفات تركز معظمه على النحو التالي:

أن معظم هذه المؤلفات قد اتجه الى اللهجات وأن هذه الدعوة لتعميم اللهجات ورعايتها لم تكن لمصلحة البحث العلمي بل هي لإشعال الفتن المحلية والقوميات غير العربية ولا أبرىء نفراً منهم قصدوا الى ذلك قصداً لكن ذلك لا يجعلنا نلقي الاتهام على الآخرين وبيننا نفر قد نحوا هذا المنحى، وإضافة إلى ذلك يجب ألا نرى كل الأبحاث حول اللهجات المحلية أو العامية بعين الريبة فقد تكون من أجل البحث العلمي الداعم للفصحى.

د- نشر اللغة العربية في ربوع ألمانيا:

بجانب دورهم ذاك انصب اهتمامهم على تعلم اللغة العربية وتعليمها، ولقد كان للمعاهد الاستشراقية في الألمانيتين قبل الوحدة وفي الدول الناطقة بالألمانية كالنمسا وسويسرا وجانب كبير من هولندا او بلجيكا ولوكسمبورج وغيرها، دور كبير في نشر اللغة العربية، وقل أن نجد مدينة كبرى في ألمانيا دون أن نرى مركزاً لتعليم اللغة العربية وبغض النظر عن المقاصد فإن ذلك اتجاه محمود.

هـ- ترجمة الأدب العربي إلى الألمانية:

ففي ظل وجود حوالي مائة وخمسين مليوناً ينطقون بالألمانية أو يجيدون قراءتها فإن ترجمة أدبنا العربي إلى الألمانية تبدو مهمة، وقد قام بعض المستشرقين بهذا الدور الرائد وقد وصل الأدب العربي إلى القارىء الألماني من خلالهم، وغدا نجيب محفوظ والغيطاني، وجبران خليل جبران، ومحمد شكري وغيرهم أسماء مشهورة في الأوساط

الثقافية الألمانية، وربما يعيب هذا الاتجاه عدم وجود خطة للترجمة التي تخضع للانتقاء الشخصي والمزاج الشخصي أيضاً، بل إن بعضها لا يخلو من سوء القصد كترجمة الأدب الذي يتحدث عن اضطهاد المرأة بحيث تغدو أليفة رفعت، أديبة كجونتر جراس في ألمانيا، وتغدو كتابات الختان والأقليات والطعن في الإسلام هي الكتابات التي يتلقفها بعضهم للترجمة لا من الأدب العربي بل من غير العرب كما فعلوا "بتسليمة نسرين" التي ودوا أن يجعلوا منها "سلمان رشدي" الجديد لكنهم فشلوا وعادت إلى أدراجها كسيرة.

ثبت بالمصادر والمراجع

أولا: المصادر:

١- ديوان امرئ القيس/تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم/دار المعارف/الطبعة الخامسة

ثانيا: المراجع:

١- في الأدب الجاهلي/ طه حسين /لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة، /طبعة ٣،١٣٥٢هـ-١٩٣٣م